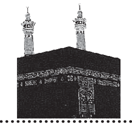


الحج قيم وسلوك

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

حسن بن موسى الصفار



الحج قيم وسلوك





﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ
الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ
وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ
خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾

[سورة البقرة، الآية:١٩٧]

الحمد للّٰه ربّ العالمين اللّهم صلِّ على محمد خاتم النبيين وتمام عدة المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه المنتجبين.

مقدمة

إنه الحج بمعنى القصد، فكل حركة فيه تنبثق من مبدأ وتستهدف ترسيخ قيمة في السلوك الإنساني.

ذلك أن المبادئ الإلهية ليست مجرد معتقدات قلبية، والقيم الفاضلة ليست مثلاً في عالم الخيال، إن التحدي الأكبر في حياة الإنسان هو تمثل القيم في السلوك، والتزام المبادئ في المواقف والممارسات.

وتشريعات الدين خريطة طريق تأخذ بيد الإنسان إلى هذا المقصد والغاية، وتساعده على النصر والنجاح في مواجهته للتحديات.

ويأتي الحج في طليعة الفرائض والتشريعات الإسلامية التي تدعم فاعلية القيم، وتعزيز مكانتها في نفس الإنسان وانعكاسها على سلوكه.

حيث يتجلى في مناسك الحج حضور أصول المبادئ والقيم، كمبدأ العبودية للّه تعالى والخضوع لأمره، ومبدأ المساواة والإخاء بين بني البشر، ومبدأ وحدة الأمة، وقيمة السعي والحركة، وقيمة التأسي والاقتداء بأنبياء

اللّه وأوليائه، ومبدأ التضحية والعطاء..

إن مناسك الحج وشعائره أقرب ما تكون إلى دورة تدريب وتأهيل، وورشة عمل وتجربة، لاختبار تحويل تلك المبادئ والقيم إلى مشاعر راسخة في النفس، وبرامج مألوفة في السلوك.

إن المهمة الأساس لمناسك الحج هي إقرار مركزية القيم والمبادئ في حياة الإنسان، لينطلق في كل حركاته وأعماله ومواقفه من خلال تلك المبادئ والقيم، وليكون سلوكه في الحياة منسجماً معها.

وحين يواجه الصعوبة في الالتزام والتطبيق، فعليه أن يوطِّن نفسه على مواجهة ذلك التحدي بثقة واطمئنان.

وفي هذه السطور المتواضعة تذكير بهذا الجانب المهم من فلسفة الحج، وددت المشاركة بتقديمها في الاحتفاء بهذه الفريضة العظيمة والاستفادة من عطائها السخي في حياة الفرد والأمة.

أسأل اللّه تعالى القبول والتوفيق.

حسن بن موسى الصفار

القطيف

١٧ رمضان ١٤٣٢هـ

١٧ أغسطس ٢٠١١م

عبادة الرب ووحدة الأمة

تمثل مناسك الحج ورشة عمل كبرى يتدرب فيها الحجيج على تطبيق القيم والمفاهيم الدينية، ويختبرون تحويلها من عالم الأفكار والإيمان القلبي إلى أرض الممارسة الفعلية السلوكية.

ومن أهم تلك القيم والمبادئ التي تتمحور حولها مناسك الحج مبدأ التوحيد وإخلاص العبودية للّه تعالى، ومبدأ وحدة الأمة.

وقد قرن اللّه تعالى بين التأكيد على وحدة الأمة والتأكيد على ربوبيته في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[سورة الأنبياء، الآية:٩٢]، وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[سورة المؤمنون، الآية:٥٢].

فالمسلم يؤمن بمبدأ العبودية للّه تعالى، وما يعنيه هذا المبدأ من الخضوع والانقياد لأوامر المولى عز وجلّ. لكن هذا المبدأ يصبح التزاماً وسلوكاً عملياً يطال مختلف تفاصيل حياة الإنسان ضمن مناسك الحج، حيث عليه

أن يتجرد من ملابسه المعتادة، ويقتصر على لبس قطعتي الإحرام، ويُحظر عليه أن يتصرف حتى في شعرةٍ من جسمه، بأن يتعمد إزالتها بنتف أو حلق، كما لا يحق له أن يلمس أو ينظر إلى امرأة بشهوة وتلذذ حتى زوجته، ولا يجوز له شمّ الروائح الطيبة حتى في الفاكهة التي يأكلها، في الوقت ذاته ليس له أن يمتنع عن شمّ الروائح الكريهة بأن يمسك على أنفه منها.. ويطلب منه أن يطوف بالبيت الحرام أشواطاً محددة العدد والابتداء والانتهاء، وأن يسعى كذلك بين جبلين، وأن يقضيَ أوقاتاً محددة في أماكن بعينها، وأن يلتقط حصى بمواصفات معينة، ليرميَ بها مكاناً معيناً في زمن محدد، وأن يحلق شعر رأسه في وقت معين.. وهكذا تأتي الأوامر الإلهية لتمسَّ هذه التفاصيل في حياة الحاج، ولتجتاز به رحلة عمل مجهد شاق، يترجم من خلالها معنى الخضوع لأوامر اللّه تعالى، ويتدرب على العبودية المطلقة له.

وإلى جانب تجلي مبدأ التوحيد والعبودية للّه تعالى في مضامين مناسك الحج وأعماله، هناك حضور لمبدأ آخر هو وحدة الأمة، حيث يلتقي الحجيج من أبناء الأمة على اختلاف ألسنتهم، وألوانهم، وبلدانهم، وطبقاتهم، ومذاهبهم، يلتقون في زمن واحد، وعلى صعيد واحد، وفي زيّ موحد، حين يلبسون الإحرام، ويهتفون ملبّين للّه تعالى بعبارة واحدة، ويشتركون جميعاً في أداء مناسك وأعمال واحدة.

إن مفردات مناسك الحج صيغت بعناية إلهية فائقة، لتؤكد في نفس الإنسان المسلم، مبدأ التوحيد للّه ووحدة الأمة، عبر برنامج عمل سلوكي، في رحلة عبادية روحية..

فما أروع مشهد الطواف حول البيت الحرام، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفات ومزدلفة، ورمي جمرة العقبة، وما أروع انتظام صفوف الحجيج في أداء صلاة الجماعة، حيث ترى في تلك المشاهد كتلة بشرية كبيرة تختلط فيها الألوان والأشكال، وتتداخل اللغات والأصوات، وتمتزج الأعراق والانتماءات.

حقًّا، إن مناسك الحج تمثل ورشة عمل وتدريب على انصهار الأمة في بوتقة الإسلام، ولتحقيق برنامج التعارف بين مكونات الأمة وأجزائها، فيلتقون على صعيد واحد، ليتعارفوا وليتدارسوا شؤونهم المختلفة، وليتفقوا على التعاون فيما بينهم لخدمة مصالحهم العامة وأهدافهم المشتركة.

إنه مؤتمر عالمي جماهيري ينعقد في أجواء روحية سامية، تتعزّز من خلاله مشاعر الوحدة والتضامن، وتتأكد عبره روح الانتماء للدين والأمة.

يقول فيليب حتي: «ولقد ظل الحج على كرّ العصور أكبر عامل موحد في الإسلام، وأقوى رابطة بين مختلف طبقات المؤمنين. وهو الذي جعل من كل مسلم قادر رحّالة ولو مرة في عمره. واجتماعات كهذه لها تأثير اجتماعي فعّال بين جماعات المؤمنين الذين يأتون من أقطار المعمورة الأربعة.

فالحج أتاح للزنوج والبربر والصينيين والفُرس والسوريين والترك والعرب ـ الفقير منهم والغني والرفيع والوضيع ـ أن يجتمعوا ويتآخوا على أساس الإيمان المشترك. والحق أن الإسلام قد وفق أكثر من أديان العالم جميعاً إلى القضاء على فوارق الجنس واللون والقومية وخاصة بين أبنائه. ولا شك في أن الاجتماع في موسم الحج له الفضل الأكبر في تحقيق

هذه الغاية»[1].

إن هذه الرسالة التوحيدية الوحدوية التي تحملها مضامين مناسك الحج، يجب الاهتمام بها، والتأمل فيها، والتفاعل معها، لتستفيد الأمة من آثارها وانعكاساتها في إدارة شؤون الحياة. فإن ذلك هو ما يحقق أهداف ومقاصد فريضة الحج العظيمة، حتى لا تبقى مجرد ممارسات وحركات طقوسية.

وفي هذا العصر بالذات ما أحوج الأمة الإسلامية إلى تأكيد وحدتها وتعزيز تماسكها، حيث تواجه عواصف الفتن المختلفة، التي أصبحت تهدد أوطانها ومجتمعاتها بالتمزق والتشظي والاحتراب. وخاصة فتنة الصراعات والانقسامات الطائفية.

إن موسم الحج ومدرسة مناسكه العظيمة تقدم للأمة أفضل فرصة لتجديد روح الوحدة، وتعزيز مفهوم الأخوة الإيمانية والتضامن الإسلامي.

وعلى قادة الأمة والحريصين على وحدتها أن يستثمروا أجواء الحج المباركة في تحقيق هذا المقصد السامي والهدف العظيم.

ونشير إلى بعض الآليات والبرامج لخدمة هذا التوجه النبيل:

بث ثقافة الوحدة

إنه لا ينبغي أن يخلو خطاب أو حديث يوجه للحجيج أو يتناول

(١) الدكتور فيليب حتي. العرب تاريخ موجز، الطبعة السادسة ١٩٩١م، (بيروت: دار العلم للملايين)، ص٥٨-٦٠.

موضوع الحج من الحثّ على الوحدة والتآخي بين أبناء الأمة، انطلاقًا من أن الحج مشهد وحدوي، يُظهر ويجسِّد وحدة الأمة، كما يتيح أفضل الفرص لتأكيد هذا المبدأ في أوساطها، حتى يعود الحجيج إلى مجتمعاتهم مبشرين برسالة الوحدة، داعين إلى الالتزام بها.

ويتحمل العلماء والدعاة المتواجدون في صفوف الحجيج مسؤولية كبيرة في تبيين هذا المبدأ الإلهي القرآني، وخاصة خطباء الحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة.

كما أن لوسائل الإعلام المهتمة بتغطية ونقل أخبار الحجيج دوراً أساساً في خدمة رسالة الحج التوحيدية الوحدوية.

نشر ثقافة التسامح والاحترام المتبادل

لأن الحجيج يتنوعون في أعراقهم وقومياتهم ومذاهبهم، وينتمون إلى مجتمعات تختلف في ثقافاتها وعاداتها وأعرافها، فينبغي التأكيد على القيم الإسلامية المشتركة، وعدم إثارة ما يسبب نزاعاً أو خلافاً.

وقد نصّ القرآن الكريم على النهي عن الجدال لمن أحرم بالحج، لتكون أجواء الحجيج بعيدة عن أدنى شائبة خلاف، أو إثارة حزازة وحساسية.

يقول تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[سورة البقرة، الآية:١٩٧].

يقول السيد عبد الأعلى السبزواري: «والظاهر أن الآية المباركة تنهي عن أمور كانت متبعة عند العرب في زيارتهم لبيت اللّه الحرام وحجهم له،

فقد كانت الأسواق في الموسم تعقد للمفاخرة بين القبائل، وكان يجري فيها التنابز بالألقاب، والخصام والمراء، وغير ذلك من المناهي المتعلقة باللسان، فناسب ذلك النهي عن هذه الأمور في الحج، وإلا فهي محرمة في جميع الأحوال، ولبيان أن الحج بطبعه لا يقبل هذه الأمور، فإنه السفر إلى اللّه، والإقبال عليه لغرض أسمى، ولا تناسب بين ما كان كذلك وبين ما هو من شأنه البعد والفرقة والانفصال»[١].

وقال الإمام مالك في الموطأ: «والجدال في الحج أن قريشاً كانوا يقفون عند المشعر الحرام في المزدلفة بقزح، وكانت العرب وغيرهم يقفون بعرفة، وكانوا يتجادلون ويقول هؤلاء: نحن أصوب، ويقول هؤلاء: نحن أصوب. فقال اللّه تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيمٍ﴾[سورة الحج، الآية:٦٧]. فهذا الجدال فيما نرى، واللّه أعلم، وقد سمعت ذلك من أهل العلم»[٢].

وقال محمد بن كعب القرظي: «إن قريشاً كانوا إذا اجتمعوا بمنى قال بعضهم: حجنا أتمّ. وقال آخرون: بل حجنا أتمّ، فنهاهم اللّه تعالى عن ذلك»[٣].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: «والجدال وهو: المماراة والمنازعة

(١) السيد عبدالأعلى السبزواري. مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ج٣، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ، (بيروت: مؤسسة أهل البيت عليهم السلام)، ص١٦٧.
(٢) الإمام مالك بن أنس. الموطأ، طبعة ١٤٢١هـ، (القاهرة: جمعية المكنز الإسلامي)، ص١٤٢.
(٣) الفخر الرازي. التفسير الكبير. ج٣، الطبعة الثالثة، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ص١٦٥.

والمخاصمة، لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة»[١].

وفي هذه التفاسير إشارة وإيحاء للنهي عن الجدال فيما يرتبط بجوانب المسألة الدينية، وادّعاء كل طرف بأنه الأصوب نسكاً والأتمّ حجاً.

تأملات في الخطاب النبوي

وحين نقرأ خطب رسول اللّه ﷺ في حجة الوداع نرى فيها تركيزاً كبيراً على رعاية الحقوق والحرمات بين المسلمين، ورفض أي إثارة لنزاع أو خلاف كالنزاعات السابقة في الجاهلية.

فقد جاء في خطبته ﷺ بعرفة كما أوردتها مختلف المصادر الإسلامية: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدميَّ، ودماء الجاهلية موضوعة، وربا الجاهلية موضوع»[٢].

وفي خطبته بمنى ﷺ في اليوم العاشر كرر وأكد على المسلمين رعاية الحرمات، وحفظ الحقوق وتعزيز الأخوة الإسلامية فيما بينهم، ومما جاء فيها قوله ﷺ: «أي شهر هذا؟ أليس بذي الحجة.

قالوا: بلى.

قال: أي بلد هذا؟ أليس البلدة؟

(١) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، طبعة ١٤١٨هـ، (بيروت: مؤسسة الريان ـ دار الذخائر)، ص١٢٦.

(٢) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. صحيح مسلم، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، (الرياض: دار المغني)، ص٦٣٦. وانظر: الشيخ محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار ج٧٣، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ، (بيروت: دار إحياء التراث الإسلامي)، ص٣٤٩.

قالوا: بلى.

قال: أي يوم هذا؟ أليس يوم النحر؟

قالوا: بلى.

قال: فإن دماءكم وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، ألا إن المسلم أخو المسلم، فليس يحل لمسلم من أخيه شيء، إلا ما أحل من نفسه، وحتى دفعة دفعها مسلم مسلماً يريد بها سوءاً حرام. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

وسأخبركم من المسلم، من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة اللّه تعالى.

ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض وأنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد»[١].

وسئل رسول اللّه ﷺ بمنى: ما خير ما أعطى الناس يا رسول اللّه؟ قال: «حسن الخلق».

وفي اليوم الحادي عشر خطب الناس بمنى على بغلة شهباء وعلي عليه السلام يبلّغ عنه الناس، فحمد اللّه وأثنى عليه، ثم قال: «أي بلد هذا؟ أليس المشعر الحرام؟ قالوا: بلى.

---

(١) محمد بن إسماعيل البخاري. صحيح البخاري، ج٤، الطبعة الأولى١٤١٤هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٣٦٠، حديث٧٠٧٨.

قال: فأي يوم هذا؟ أليس أوسط أيام التشريق؟

قالوا: بلى.

قال ﷺ: فإن دماءكم، وأعراضكم، وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، فليبلغ أدناكم أقصاكم.

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، فلا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد ، وأن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، ليس لعربي فضل على عجمي، ولا لعجمي فضل على عربي إلا بالتقوى، ولا لأسود على أبيض، ولا لأبيض على أسود، إلا بالتقوى، إن اللّه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[سورة الحجرات، الآية١٣]»[1].

هكذا يؤكد رسول اللّه ﷺ في كل يوم من أيام الحج، وفي كل خطبة يوجهها للحجيج، على مبدأ الوحدة والأخوة، وعلى أن يحترم الناس حقوق بعضهم بعضًا، بغض النظر عن أعراقهم وانتماءاتهم.

إن هذه الخطب النبوية يجب أن ترسم لنا سياسة الخطاب الإسلامي في موسم الحج، بأن يكون خطاباً توحيدياً يؤكد على الوحدة والأخوة والتسامح، وحفظ الحقوق والحرمات بين أبناء الأمة.

(١) بحار الأنوار. ج٧٣، ص٣٥٠.

ومما يؤسف عليه أن هناك من يسيء إلى أجواء الحج الوحدوية المباركة ببث خطاب متشنج، يركز على قضايا الخلافات المذهبية بين أبناء الأمة، ويتهم فئات وطوائف من الأمة في دينها، مما يؤدي إلى حدوث بعض الاحتكاكات، ويعكّر أجواء المودة والإخاء بين المسلمين.

إن الخلاف في بعض التفاصيل العقدية والفقهية، وتقويم الشخصيات والأحداث التاريخية أمر قديم في تاريخ الأمة، وعلى أساسه تنوعت مذاهبها ومدارسها الفكرية والفقهية، وإذا كان البحث العلمي والحوار المنطقي مطلوباً في موارد الخلاف، للوصول إلى الحق ومعرفة الصواب، فإن ذلك لا يتحقق بكيل الاتهامات، وترويج الشائعات، والتحريض على الكراهية، وإساءة التعامل مع ضيوف الرحمن وحجاج بيت اللّه الحرام.

تشجيع الانفتاح والتواصل

إن الحج مؤتمر إسلامي عالمي، يجب استثماره في تعرّف المسلمين إلى بعضهم بعضًا، وفي التوافق على برامج عمل وتواصل دائم، بما يخدم قضاياهم المشتركة ومصالحهم العامة. ولا ينبغي أن يتقوقع أهل كل بلد أو مذهب من الحجيج على أنفسهم، بل تجب المبادرة إلى الانفتاح والتواصل، وخاصة على نخبة المجتمعات الإسلامية، من العلماء والدعاة والقادة وذوي الرأي والناشطين الاجتماعيين، ممن يتوفقون لأداء فريضة الحج.

كما ينبغي لكل حاج أن يغتنم الفرصة بتكثيف حضوره ومشاركته في صلاة الجماعة في الحرمين الشريفين، بالمسجد الحرام في مكة المكرمة، والمسجد النبوي في المدينة المنورة، ولا ينبغي أن يكون الاختلاف المذهبي

عائقاً عن المشاركة في صلاة الجماعة المقامة في الحرمين الشريفين، وقد سئل المرجع الديني السيد علي السيستاني عن خروج بعض أبناء الطائفة من المسجدين الشريفين حين إقامة الجماعة فأجاب:

«هذا العمل غير مناسب، بل ربما لا يجوز لبعض العناوين الثانوية كالإساءة إلى سمعة المذهب ونحو ذلك»[١].

كما سئل سماحته: أيهما أفضل الصلاة في المسجد الحرام والمسجد النبوي فرادى أو الصلاة في المنزل جماعة؟

فأجاب: «الصلاة في المسجدين أفضل»[٢].

وفي الإجابة عن استفتاء آخر، أجاز السيد السيستاني الصلاة خلف أتباع المذاهب الأخرى، على أن يقرأ المأموم لنفسه إخفاتاً، وإذا كان هناك حرج في الالتزام ببعض أحكام الصلاة بسبب الاختلاف المذهبي، كالتكتف والسجود على الفرش، فإنه يجوز ذلك[٣].

وفي أول موسم حج بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران وجّه الإمام الخميني بياناً للحجاج الإيرانيين ولجميع الشيعة بتاريخ ٢٨ شوال ١٣٩٩هـ، طالبهم فيه بالمشاركة في صلاة الجماعة مع أهل السنة، واجتناب أي عمل يثير حساسيات الخلاف والتفرقة بين السنة والشيعة.

ومما جاء في ذلك البيان:

---

(١) السيد علي الحسيني السيستاني. مناسك الحج وملحقاتها، طبعة ١٤٣١هـ (دار كميل). ص٣٤٢.
(٢) المصدر نفسه. ص٣٤٠.
(٣) المصدر نفسه ص٣٤٢.

«يلزم على الأخوة الإيرانيين والشيعة في سائر البلدان الإسلامية، أن يتجنّبوا الأعمال السقيمة المؤدية إلى تفرقة صفوف المسلمين، ويلزم الحضور في جماعات أهل السنة، والابتعاد بشدة عن إقامة صلاة الجماعة في المنازل، ووضع مكبرات الصوت بشكل غير مألوف، وعن إلقاء النفس على القبور المطهرة، وعن الأعمال التي قد تكون مخالفة للشرع»[1].

إن مثل هذه الفتاوى تنطلق من الحرص على رعاية وحدة المسلمين وتآلفهم، وتمكّن الحجيج من الانفتاح والتواصل مع بعضهم بعضًا، بما يؤكد الاحترام والثقة المتبادلة، ويبني جسور التعارف والتعاون بينهم على البر والتقوى، انسجاماً مع رسالة الحج العظيمة.

(١) الشيخ جعفر السبحاني. دور الشيعة في بناء الحضارة الإسلامية، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ، (إيران: معاونية شؤون التعليم والبحوث الإسلامية)، ص١٠.

الحج والتربية الاجتماعية

أريج مكة، ونسيم المشاعر المقدسة، تهبّ على قلوب المسلمين هذه الأيام، فتنجذب القلوب، وتنشدّ النفوس، إلى هذا النسك الإلهي العظيم، حجّ بيت اللّه الحرام، ومن يتوفق للحجّ يعيش هذه اللذة المعنوية العظيمة بروحه وجسمه، أمّا من حرمته الظروف فيبقى متعلقاً بقلبه ومشاعره نحو تلك الأجواء المباركة.

ولفريضة الحج أبعادٌ كثيرة تنعكس على مختلف جوانب حياة الإنسان الحاج، والأمة الإسلامية بشكل عام، كما يقول تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[سورة الحج، الآية: ٢٨].

ولعل من أبرز أبعاد هذه الرحلة العبادية الإيمانية هو البعد الاجتماعي، حيث يتوجه الحجيج لأداء مناسك حجهم على شكل مجموعات وحملات، وذلك هو الأسلوب المتبع من قديم الزمان، ومن شتى المناطق والبلدان.

لأن طبيعة الحج وخاصة لمن يحج لأول مرة، تستلزم صحبة الآخرين،

ليساعدوه في معرفة المناسك، وتفصيلات أحكامها، وأماكن وأزمنة أدائها، إضافة إلى أن توفير متطلبات الإقامة والتنقل والمعيشة خلال أيام الحج، وما يكتنفها من زحام في الأماكن المقدسة، تشقّ وتصعب على الحاج بمفرده، وتكون كلفتها عالية، بينما تتهيأ له ضمن الحملة بسهولة ويسر.

لكل ذلك نشأت مؤسسات خاصة تقوم بمهمة نقل الحجاج، وترتيب شؤون سفرهم، وأدائهم لمناسك الحج، ويطلق عليها في مجتمعنا (حملات الحج). ولبحث البعد الاجتماعي في الحج، لا بد أن نسلط الأضواء على دور (الحملة) في توفير الأجواء الاجتماعية المناسبة للحاج، والمنسجمة مع الأهداف التربوية والروحية لفريضة الحج العظيمة.

إدارة الحملة

إدارة الحملة هي الجهة المؤسسة لها والمتحملة لأعبائها وتصريف شؤونها، ومن أجل أن تكون إدارة صالحة ناجحة ينبغي أن تتوفر على المواصفات التالية:

١. استحضار الهدف المعنوي

صحيح أن من حق مسؤول الحملة أن ينال مصلحة وكسبًا ماديًّا جرّاء جهوده وأتعابه، فقد تكون الحملة مصدراً لرزقه، لكنه في نفس الوقت يقوم بعمل خيّر صالح، يستحق عليه الأجر والثواب من قبل اللّه تعالى.

لما في وجود الحملة من تشجيع وإعانة على أداء عمل ديني عبادي، وما تقتضيه من تقديم الخدمة لأناس مؤمنين، متجهين لطاعة اللّه تعالى، ومنشغلين بعبادته.

واستحضار صاحب الحملة لهذا الهدف المعنوي، يجعله مستحقاً لثواب اللّه تعالى ورضاه، كما يشعره بقيمة العمل الذي يؤديه، وأنه ليس مجرد حرفة مهنية مادية، بل هو إلى جانب ذلك عمل عبادي خيري يتقرب به إلى اللّه تعالى، مما يعطيه اندفاعاً وراحة نفسية، تعينه على مواجهة مشاقّ العمل وصعوباته.

٢. الإدارة بين الفردية والجماعية

مهما كانت كفاءة الشخص وقدراته، فإنه قد لا يحيط بمختلف الأمور، وقد يفوته الانتباه والالتفات إلى بعض القضايا والجوانب، لذلك فإن الإدارة الأفضل، والتخطيط الأنجح، والقرار الأصوب، هو الذي تشارك فيه أكثر من طاقة وكفاءة، ويتم عن طريق فريق منسجم.

إن المؤسسات الناجحة هي التي يديرها مجلس إدارة، وليس شخصاً متفرداً، فينبغي لصاحب كل حملة أن يشكل فريقاً لإدارة حملته، يتناقشون من خلاله ويخططون ويسيّرون الأمور.

ومن يشترك في صنع القرار يصبح أكثر التزاماً واندفاعاً للتنفيذ والتطبيق، وتحمل أعباء القرار ومسؤوليته.

٣. توفير الأجواء والوسائل

على إدارة الحملة أن تجتهد في توفير الأجواء المناسبة، والبرامج والوسائل التي تعين الحجيج على أداء مناسكهم بسهولة ويسر وإتقان، وأن تُهيئ لهم ظروف الراحة والانسجام.

إن التقصير تجاه الحجاج، أو الإخلال بالوظائف المتفق عليها بينهم وبين

الإدارة، قد يعكّر أجواء العلاقة بين الطرفين، ويسبب المشاكل والنزاعات، كما قد يحصل في بعض الحملات، فيسيء ذلك إلى سمعة الحملة وصاحبها، ويؤثر على الأجواء السائدة فيها.

٤. حسن التعامل

فالحجيج الذين ينضمون للحملة، عادة ما يكونون من شرائح وفئات مختلفة من المجتمع، ففيهم المرأة والرجل، والكبير والشاب، والتاجر والعامل، والمثقف والجاهل... ولكلٍ عاداته ومزاجه وأخلاقياته، كما أن طبيعة السفر، ووظائف الحج، قد تسبب للبعض شيئاً من التعب الجسمي أو النفسي، فهم جميعاً بحاجة إلى استيعاب ومداراة، وحسن تعامل من قبل إدارة الحملة، لامتصاص المشاكل، ومعالجة ما قد يحدث من إشكاليات.

وفي ذلك أجر كبير، وعون على نجاح الحملة.

الإرشاد الديني

وجود إرشاد ديني ضمن الحملة ضروري لسببين:

الأول: أن مناسك الحج بحاجة إلى توضيح وتبيين، خصوصاً لمن يحجون لأول مرة.

الثاني: الاستفادة من فرصة الحج في التوجيه والتوعية والتربية الدينية الشاملة، فأثناء رحلة الحج ينقطع الحاج عن ارتباطاته واهتماماته المادية المختلفة، ويكون متفرغاً من ناحية الوقت، مهيئاً في حالته النفسية لتقبل التوجيه والإرشاد، مما يفسح المجال جيداً للمرشد

الديني أن ينمِّي عنده مستوى التدين والوعي، وأن يحدث في نفسه الاهتمام بالقيم والمبادئ، بحيث تصبح رحلة الحج دورة تربوية مكثفة، يتخرج منها الحاج، وهو أكثر وعياً بدينه، وأشد التصاقاً بمبادئه.

إن أغلب الناس لا تتسع أوقاتهم الاعتيادية لبرامج الإرشاد والتوجيه، وقد لا يقبلون عليها، وفرص المرشدين والواعظين في الالتقاء بالناس والتخاطب معهم محدودة ضمن مناسبات معينة، أمّا في الحج فالمجال متاح، والفرصة سانحة، ومرافقة المرشد للناس ومعايشته معهم في الحملة، تجعله أكثر انفتاحاً عليهم، وإدراكاً لحاجاتهم، وتجعلهم أكثر تجاوباً وتفاعلاً مع إرشاده ووعظه.

من هنا فإن رحلة الحج يمكنها أن تقدم زخماً كبيراً للحالة الدينية والتربوية في المجتمع، وذلك بمراعاة النقاط التالية:

١. فريق للإرشاد

لكي يتمكن الإرشاد الديني في الحملة من استيعاب كل الأفراد، وتوفير المستوى المناسب من التوجيه لهم، لا بد وأن يكون هناك عدد كافٍ من المرشدين يتناسب مع عدد الحجيج، مما يعني وجود فريق للإرشاد، يتقاسمون الأدوار، ويخططون لإنجاز المهام، ويتناقشون في وضع أفضل البرامج للتعليم والتوجيه.

ومع تعدد المرشدين يجب أن تتوفر بينهم حالة التنسيق والتعاون، وألا يسمحوا للشيطان بأن يبذر بينهم بذور الحساسية والتعارض، وكأنهم

يعيشون وضع تحاسد شخصي، وتنافس مصلحي، أو استقطابات فئوية.

٢. القدوة الحسنة:

يتأثر الناس بسلوك المرشد وممارساته أكثر من تأثرهم بكلامه وخطاباته، وعادة ما ينظرون إليه نظرة تقديس واحترام، ومع معاشرتهم له في رحلة الحج، إذا ما رأوه ملتزماً بالقيم الدينية، متصفاً بمكارم الأخلاق، فستزداد ثقتهم به، واستجابتهم لمواعظه، أمّا إذا لاحظوا منه ضعف الالتزام والانضباط، أو سوء المعاملة والأخلاق، فسيسقط اعتباره في أعينهم، وسيفقد مصداقيته لديهم، وقد ينعكس ذلك سلبياً على نظرتهم لصنف المرشدين وعلماء الدين كافة.

٣. التوعية والتوجيه الشامل

صحيح أن المطلوب من المرشد بالدرجة الأولى تعليم وتبيين مناسك الحج، لكنه كصاحب رسالة، وكعالم ديني، عليه أن يتحمل مسؤوليته الشرعية، ما دامت الفرصة متاحة لديه، في الدعوة إلى اللّه، وبث الوعي، وبذل التوجيه الديني الشامل لاحتياجات من حولـه من الحجيج، عقائديًّا، وفقهيًّا، وأخلاقيًّا.

إن الحج جزء من منظومة الفرائض الإسلامية، وهو ليس مجرد طقوس وممارسات مقصودة لذاتها، وإنما هو أعمال تستهدف صياغة شخصية الإنسان، على أساس العبودية للّه تعالى، وزرع ملكة التقوى في أعماق نفسه. وهذا ما يؤكده القرآن الكريم عند حديثه عن واجب الهدي في الحج، يقول تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾[سورة

الحج، الآية: ٣٧] .

فلا بد من تبيين فلسفة الحج، وأغراض مناسكه، ومعالجة النواقص التي يعاني منها الحاج في المجال الفكري والسلوكي، ليكون الحج منعطفاً مهمًا في حياته، وليترك تأثيره الروحي على شخصيته.

بالطبع ينبغي اختيار أفضل الأساليب للجذب والتأثير، ومراعاة المشاعر في النصيحة والموعظة، كما هو أدب الإسلام، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[سورة النحل، الآية: ١٢٥] .

إنّ التعنيف والتوبيخ والإحراج، كما قد يفعله البعض من محاسبة الأفراد على أخطائهم في واجبات الوضوء، وأفعال الصلاة والقراءة والأذكار فيها، أمام الآخرين، قد يسبب نفوراً من الإرشاد الديني، ويحدث ردّ فعل في النفوس، وهو إيذاء وإهانة يحرمها الشارع المقدس.

أخلاقيات الحاج

يفترض في حملة الحج أن تكون أنموذجاً مصغراً للمجتمع الإسلامي، وأن تقدم صورة عن الأجواء والأخلاقيات التي يجب أن تسود بين المؤمنين، ذلك أن أفراد الحملة هم مجموعة من المتدينين المستجيبين لأحكام الدين، وما توجههم للحج وعزمهم على أداء مناسكه، إلا دليل ومؤشر على تدينهم واستجابتهم لأوامر اللّه تعالى. وهم إذ يجتمعون في الحملة إنما يجمعهم الاشتراك في القيام بعمل عبادي. كما أن طبيعة المناسك تفرض الابتعاد عن النزعات الأنانية والعدوانية، وتشعر الحاج بعضويته واندماجه

في المجتمع الإسلامي الكبير، عبر ارتداء لباس موّحد تقريباً هو الإحرام، والعيش في زمان ومكان واحد، وتأدية نسك وعمل واحد.

ومن محظورات الإحرام حمل أي نوع من السلاح، حيث لا يجوز للمحرم لبس السلاح، ولا حمله على وجه يعد مسلّحاً، كما يحرم الاقتراب من الشهوات الجنسية، ويحرم الفسوق، وهو يشمل الكذب والسب والمفاخرة التي تعني التباهي بالنسب أو المال أو الجاه أو العلم وما أشبهها، أمام الآخرين للحطّ من مكانتهم، ويحرم الجدال المشتمل على الحلف باللّه تعالى لإثبات أمر أو نفيه، وتفاصيل مسائل محظورات الإحرام مذكورة في كتب المناسك. يقول اللّه تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٩٧] .

إن كل ذلك يستلزم أن تسود الحملة أجواءً إيمانية إيجابية، تنطلق من تعاليم الإسلام وأخلاقه وآدابه.

ونُذكّر هنا ببعض النقاط والملاحظات التي ينبغي أن يتقيّد بها الحاج خلال رحلته العبادية العظيمة:

التوجه للأهداف المقدسة

الحج ليس رحلة ترفيه وتسوّق، وإنما هو في الأصل برنامج عبادي تربوي، يستهدف تحقيق القرب من اللّه تعالى، ونيل مغفرته ورضاه، فعلى الحاج أن يجعل هذا الهدف المقدس نصب عينيه، فيختار الحملة التي ينضم إليها ليس على أساس خدماتها المادية الرفاهية فقط، وإنما يأخذ بعين الاعتبار برامجها الروحية التربوية.

وعن تقويم الحملة ونقدها ينبغي الالتفات إلى هذا الجانب، بالنظر إلى مستوى اهتمامها على هذا الصعيد.

ومؤسف أن بعض الحجيج يصرفون وقتاً طويلاً في التسوق والتجوال في المجمّعات التجارية، على حساب البرامج الروحية والتوعوية.

إن أيام وساعات إقامة الحاج في الحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة ثمينة وغالية، عليه أن يستثمرها بأقصى حدٍّ في تحقيق أهدافه المعنوية السامية، من تحصيل المعارف الدينية، واكتساب الآداب الإسلامية، وأداء السنن والمستحبات من زيارة وطواف وسعي وصلاة ودعاء وتلاوة قرآن. واطلاع على المعالم وآثار التاريخ الإسلامي المجيد.

وليس محظوراً الذهاب إلى الأسواق وأماكن الترفيه، ولكن ضمن حد لا يؤثر على سائر البرامج الروحية المهمة.

التعامل بين الحجيج

يعيش الحاج ضمن الحملة مع مجموعة من إخوانه المؤمنين، الذين قد يكونون من مناطق وأسر ومستويات مختلفة. وعليه أن يهتم بحسن التعامل معهم، وأن يكسب مودتهم ومحبتهم. إن ظروف السفر والتنقل، وطبيعة أعمال الحج التي يكتنفها شيء من التعب والعناء بسبب الزحام، كل ذلك قد يُحْدِث عند بعض الحجيج حالة من التوتر النفسي، فيظهر عليهم الانزعاج والغضب لأتفه الأسباب، وذلك أمر سيئ يجب أن لا يقبله الحاج لنفسه، وعليه أن يتحمّل ما قد يبدر من رفاقه في الحملة، ليساعد على تهدئة نفوسهم، وامتصاص حالات التوتر لديهم.

إن البعض قد تضيق نفوسهم، فيتحاسدون ويتنافسون على امتيازات جزئية بسيطة، كالجلوس على مقاعد معينة من السيارة، أو اختيار أماكن مفضّلة في السكن، أو الحصول على وجبات غذائية ذات مواصفات خاصة، وما أشبه ذلك من الأمور التي يجب أن يتسامى عليها الحاج، ويتخلق بالإيثار والتواضع والسماحة.

ومن الأخلاقيات الرائعة التي يؤكد عليها الإسلام في صحبة الآخرين ومرافقتهم وخاصة في السفر، المبادرة للخدمة والعون. فقد روي عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجراً وأحبهما إلى اللّه أرفقهما بصاحبه»[١].

وعنه ﷺ: «من أعان مؤمناً مسافراً فرج اللّه عنه ثلاثاً وسبعين كربة»[٢].

ويتحدث الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن جده الإمام زين العابدين عليه السلام قائلاً: «كان علي بن الحسين عليه السلام لا يسافر إلا مع رفقة لا يعرفونه، ويشترط عليهم أن يكون من خدّام الرفقة فيما يحتاجونه إليه»[٣].

وتؤكد رواية أخرى على أهمية الانسجام بين المسافرين وضرورة المحافظة على أسرار رفقاء السفر، وعدم نشر أخطائهم وكشف عيوبهم فيما بعد بين الناس، وذلك فيما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال:

(١) محمد بن الحسن الحر العاملي. وسائل الشيعة ج١١الطبعة الأولى ١٩٩٣م، (بيروت: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث)، ص٤١٢، حديث ١٥١٣٤.
(٢)المصدر نفسه. ص٤٢٩ حديث ١٥١٧٦.
(٣)المصدر نفسه. ص٤٣٠ حديث ١٥١٧٧.

«وأما مروءة السفر، فبذل الزاد، والمزاح في غير ما يسخط اللّه عز وجل، وقلة الخلاف على من صحبك، وترك الرواية عليهم إذا أنت فارقتهم»(١).

واللافت للنظر أن الفقهاء والمحدّثين، يذكرون جملة كبيرة من آداب السفر والرفقة والمعاشرة، عند الحديث عن مقدمات الحج وأحكامه، ويتعجب الإنسان من ذلك العدد الهائل من الأحاديث حول الموضوع، مما يؤكد أهمية حسن التعامل والعشرة مع الناس، وخاصة ضمن رحلة الحج العبادية المقدسة.

ففي أحد المصادر الحديثية المهمة التي يعتمد عليها الفقهاء، وهو موسوعة (تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة)، وضمن كتاب الحج خصص ٢٨٧ باباً، تقع في أكثر من ٥٠٠ صفحة، وتشتمل على ١٤١٥ حديثاً، كلها تدور حول آداب السفر وأحكام العشرة والصحبة(٢).

مما يعني أن على الحاج أن يهتم بحسن تعامله مع رفاقه الحجيج، كما يهتم بأداء مناسك حجه وأحكام عباداته.

---

(١)المصدر نفسه. ص٤٣٦ حديث ١٥١٩٥.
(٢)المصدر نفسه. ج١١-١٢.



الاستطاعة للحج وتحديد الأولويات

الحج عنوان لموسم روحي اجتماعي، يتفاعل معه كل المسلمين، الذين يربو عددهم الآن على المليار نسمة، في مختلف أنحاء العالم.

صحيح أن من يشارك فعلاً في مناسك الحج في حدود المليوني شخص، لكنهم ينتمون لمختلف الأعراق والشعوب والمجتمعات الإسلامية، كما أن أنظار جميع المسلمين في هذا الموسم، تشخص باتجاه مكة والمشاعر المقدسة.

والحج عنوان لرحلة مادية معنوية، يقوم بها الإنسان المسلم، بروحه وجسده وأفكاره وأحاسيسه، يقطع فيها مسافات المكان والزمان، ليتعلق بأستار الكعبة أول بيت وضع للناس، وليصافح الحجر الأسود (يمين اللّه تعالى في الأرض)، وليصلي عند مقام إبراهيم أبي الأنبياء، وليترسم خطوات رسول الإسلام محمد ﷺ، حيث نشأ في بطاح مكة وانطلق بدعوته من غار حراء.

وإذا كان الحج معناه اللغوي: القصد على جهة التعظيم، ومعناه الشرعي: القصد إلى بيت اللّه الحرام بأعمال مخصوصة في أوقات مخصوصة، حسب تعريف (أبي البقاء) في الكليات. فإنه في الأساس من الظواهر الدينية العامة والقديمة، تقول الموسوعة العربية الميسرة: عرف الحج منذ القدم، ودعت إليه الأديان السماوية الثلاثة، وكذلك عرف في سائر الديانات كالديانة الهندوسية التي من طقوسها الدينية الحج إلى نهر الغانج (ganges) الذي يقع في الجزء الشمالي من الهند، يخرج من جبال الهملايا، ويجري جنوباً بشرق ليصب في خليج البنغال. ولشهرة الحج كظاهرة دينية اشتهر تعريفه في الموسوعات الثقافية ودوائر المعارف العامة بأنه: رحلة إلى مكان مقدس لغرض ديني. والأغراض الدينية التي يهدف إليها المتدينون من القيام بالحج تختلف باختلاف المعتقد[1].

فلسفة الحج

١. أعمال الحج ومناسكه تدرّب الإنسان على الخضوع للّه تعالى، فيما يأمر به وينهى عنه، وتؤكد في النفس حالة العبودية والانقياد لأوامره تعالى، على اختلاف أصنافها وأشكالها، ومهما استلزمت من تعب وعناء، وحتى لو لم يعرف الإنسان مقاصدها وأغراضها المباشرة.

بدءاً من عملية الإحرام، حيث ينزع الحاج ما كان اعتاد عليه من الملابس، ليرتدي قطعتي الإحرام إزاراً ورداءً، ومن ثم يتقيد بمحظورات الإحرام، التي تصل إلى ما يقرب من ٢٥ محظوراً،

(١) الدكتور عبد الهادي الفضلي، مبادئ علم الفقه ج٣ ص٤.

على اختلاف في بعضها وفي تفاصيلها بين فقهاء المسلمين. ومروراً بواجب الطواف والسعي، والتقصير أو الحلق، ورمي الجمار والذبح أو النحر، والوقوف بعرفة ضمن زمن محدد، وكذلك المزدلفة، والمبيت بمنى، إلى سائر شعائر الحج ومناسكه، التي تشكل بمجملها دورة تدريبية، تربي الإنسان على الطاعة والخضوع لخالقه، في مسائل الزمان والمكان، وما يرتبط بجسده، وحركته وسائر تصرفاته وممارساته. يقول الإمام علي عليه السلام: «وفرض عليكم حج بيته الحرام، الذي جعله قبلةً للأنام... وجعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته، وإذعانهم لعزته»[1].

٢. والحج ارتباط واتصال بالمسيرة الإيمانية في بعد الزمان والمكان، والرموز والقيادات التاريخية، فلا يكون الدين مجرد عقيدة نظرية فكرية، بل حركة مستمرة عبر التاريخ، يرتبط بها المسلم، فيرى موقع انطلاقها، ويعيش في رحاب انبثاقها، ويتفقد الأماكن التي شهدت أحداثها المصيرية، ويخترق الزمان ليتواصل مع حياة الأنبياء، وسيرة الأئمة والأولياء، ومواقف الصحابة والسلف الصالح، فهنا مقام إبراهيم، وهنا حجر إسماعيل، وهنا سعت هاجر، وهنا ولد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفي هذا الغار ـ غار حراء ـ كان بدء نزول الوحي والبعثة النبوية، وهنا اختبأ الرسول ـ في غار ثور ـ مع صاحبه أبي بكر عند هجرته إلى المدينة، وهنا مسرح بطولات علي بن أبي طالب في بدر وأحد وخيبر والخندق، وهنا تضحيات الصحابة وشهداء

(١) الشريف الرضي الموسوي، نهج البلاغة، خطبة١.

الإسلام الأوائل..

ويشير إلى هذه الحكمة الإمام جعفر الصادق عليه السلام في حديثه عن الحج حيث يقول: «ولتعرف آثار رسول الله صلى الله عليه وآله، وتعرف أخباره، ويذكر ولا ينسى»(١).

٣. وفي الحج تتجسد أمام المسلم عالمية الإسلام، ويشعر بانتمائه إلى الأمة الإسلامية العريضة، حيث يؤدي مناسك الحج ضمن حشد بشري، من مختلف الأعراق والقوميات والشعوب والقبائل والمذاهب والتوجهات المتعددة، التي يجمعها إطار الإسلام، وتوحدها شعائره وأصوله وأركانه، فقد يعيش المسلم في بلده وبين قومه، فلا يدرك اتساع رقعة الإسلام، ولا تنوع المجتمعات الإسلامية في انتماءاتها ومذاهبها، لكنه في الحج يلحظ هذا التنوع والتعدد تحت لواء واحد، وفي ظل راية الإسلام الواحدة، فكلهم مسلمون يطوفون حول كعبة واحدة، ويتجهون إليها في صلاتهم، ويرددون هتاف الاستجابة لأوامر الله: لبيك اللهم لبيك، ويقومون بنسك موحد، فنحن جزء من أمة كبيرة، تعيش تنوعاً وتعددية، ضمن المبدأ الواحد، ولا تؤثر تلك الانتماءات الاجتماعية والمذهبية المختلفة، على حقيقة وحدة الأمة، واجتماعها على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله.

٤. وللحج منافعه ومكاسبه العظيمة في جميع مجالات حياة الأمة، السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لذلك يتحدث الخالق تعالى عن

(١) الشيخ الصدوق. محمد بن بابويه القمي، علل الشرائع، طبعة ١٩٦٣م، (النجف الأشرف: المكتبة الحيدرية)، ص٤٠٦.

منافع الحج بشكل مفتوح مطلق، يقول تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ. لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[سورة الحج، الآية: ٢٧ ـ ٢٨]. وتنكير ﴿مَنَافِعَ﴾ للتعظيم، والمراد منه الكثرة وهي المصالح الدينية والدنيوية[1].

ويسأل الربيع بن خيثم الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ منافع الدنيا أو منافع الآخرة؟ فقال: الكل[2].

شرط الاستطاعة

وإذا كانت سائر العبادات والفرائض الإسلامية يؤديها الإنسان وهو في بلده ومكانه، فإن فريضة الحج تستلزم منه سفراً وحركة وانتقالاً، لذلك جعل اللّه تعالى فرضها مرة واحدة في العمر، حيث يجب على كل مسلم مكلف، أن يؤدي فريضة الحج ولو كان يعيش في أبعد نقطة من الأرض عن البيت الحرام، لكن ذلك مشروط بالتمكن والاستطاعة، يقول تعالى: ﴿وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[سورة آل عمران: الآية٩٧].

وإذا كانت الاستطاعة لغة تعني الاقتدار على فعل الشيء أو الكفّ عنه، إلا أنها هنا يراد بها ما هو أخصّ من القدرة، ذلك أن القدرة تعني امتلاك القوة على إنجاز الفعل أو الكفّ عنه، وإن كان ذلك يستلزم العسر والحرج، لكن الاستطاعة هي المقدرة التي لا يشوبها عسر أو حرج، كما

(١) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التنوير والتحرير ج١٧، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، (بيروت: مؤسسة التاريخ)، ص١٧٨.
(٢) محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج٤ طبعة ١٤٠٥هـ، (بيروت: دار الأضواء)، ص٤٢٢.

أشار إلى ذلك الشريف المرتضى بقوله: «والاستطاعة عبارة عن تسهيل الأمر وارتفاع المشقة فيه، وليست بعبارة عن مجرد القدرة»[١].

ويرى جمع من الفقهاء أن الاستطاعة هنا يحددها العرف، فهو الذي يقدر أن المكلف مستطيع أو غير مستطيع، وذلك حسب شأن الإنسان ووضعه الاجتماعي، «فالمراد من الاستطاعة هو المعنى العرفي المتفاهم من هذه الكلمة، فليس للشارع معنى خاص، ولا اصطلاح جديد، بل المراد هو المعنى العرفي، الذي يطلق في سائر الموارد»[٢].

وتشمل الاستطاعة سعة الوقت ليكفي للذهاب إلى الأماكن المقدسة وإدراك أيام الحج، وصحة البدن وقوته، وتوفر الأمن والسلامة، والإمكانية المالية.

تحديد الأولويات

بالتأمل في المسائل التي يذكرها الفقهاء حول موضوع الاستطاعة، كشرط لوجوب الحج على المكلف، تتجلى لنا قضية مهمة، هي ضرورة تحديد الأولويات في حياة الإنسان، فأمام الإنسان مهام عديدة، وحاجات ورغبات مختلفة، والبعض من الناس ليست له ضوابط يحدد على أساسها أولويات اهتماماته وتوجهاته، بل تستقطبه رغبه معينة، أو يسيّره جو يحيط به، فيتجه إلى المهم على حساب الأهم، أو إلى الأمور الثانوية على حساب القضايا الرئيسة، ويحصل هذا في جانب بذل الجهد الفكري، أو الإنفاق

(١) مبادئ علم الفقه. ج٣، ص١٥.
(٢) السيد محمد الحسيني الشيرازي. الفقه ج٣٨، الطبعة الثانية ١٩٨٨م، (بيروت: دار العلوم)، ص١٠.

المالي، أو الحركة العملية.

بينما يوجهنا الشرع إلى تقديم الأهم على المهم، وهي من القواعد الفقهية التي يعتمدها الفقهاء، وإلى أولوية الفريضة الواجبة على النافلة المستحبة، يقول الإمام علي عليه السلام: «لا قربة بالنوافل إذا أضرت بالفرائض»[1] «إذا أضرت النوافل بالفريضة فارفضوها»[2].

ولعل ما نراه في الجانب الاقتصادي ـ مثلاً ـ عند بعض الناس، من الإنفاق على الكماليات والأمور الرفاهية، على حساب القضايا الأساس، هو نموذج واضح للتغافل عن هذه الحقيقة.

ضرورات المعيشة

بالدرجة الأولى يجب أن يهتم الإنسان بتوفير متطلبات حياته المعيشية، من قوت وكسوة وسكن وزواج وعلاج، وسائر الاحتياجات، التي قد تختلف باختلاف المجتمعات، ومستوى الأفراد وشأنهم. وإذا عجز الإنسان عن توفير شيء من ضرورات معيشته، فإن على المجتمع أن يساعده في ذلك ويسدَّ حاجته.

لذا أفتى الفقهاء بعدم تحقق الاستطاعة ووجوب الحج إذا كان على حساب ضرورات المعيشة، يقول السيد اليزدي: «يستثنى من ذلك ما يحتاج إليه في ضروريات معاشه، فلا تباع دار سكناه اللائقة بحاله، ولا خادمه المحتاج إليه، ولا ثياب تجمله اللائقة بحاله، فضلاً عن ثياب مهنته، ولا

---

(١) نهج البلاغة. حكمة ٣٩.
(٢) المصدر نفسه. حكمة ٢٧٩.

أثاث بيته من الفراش والأواني وغيرهما، مما هو محل حاجته، بل ولا حلي المرأة مع حاجتها بالمقدار اللائق بها بحسب حالها، في زمانها ومكانها، ولا كتب العلم لأهله، ولا آلات الصنايع المحتاج إليها في معاشه، ولا فرس ركوبه مع الحاجة إليه، ولا سلاحه، ولا سائر ما يحتاج إليه، لاستلزام التكليف بصرفها في الحج العسر والحرج، ولا يعتبر فيها الحاجة الفعلية ... نعم لو زادت أعيان المذكورات عن مقدار الحاجة وجب بيع الزائد في نفقة الحج»(١).

ويقول في مسألة أخرى: «إذا كان عنده مقدار ما يكفيه للحج ونازعته نفسه إلى النكاح، الأقوى عدم وجوبه ـ الحج ـ مع كون ترك التزويج حرجاً عليه، أو موجباً لحدوث مرض، أو للوقوع في الزنا ونحوه»(٢).

ويقول السيد الخوئي: «الرجوع إلى الكفاية وهو التمكن بالفعل أو بالقوة من إعاشة نفسه وعائلته بعد الرجوع، وبعبارة واضحة يلزم أن يكون المكلف على حالة لا يخشى معها على نفسه وعائلته من العوز والفقر، بسبب صرف ما عنده من المال في سبيل الحج»(٣).

حقوق الناس

وبالدرجة الثانية ينبغي للإنسان أن يؤدي ما للناس عليه من حقوق مالية، وأساساً فإن بقاء دين أو حق في ذمة الإنسان أمر سيئ مزعج، لا يلجأ إليه إلا لضرورة تقتضيه، وعليه المبادرة لأدائه بأسرع وقت ممكن،

(١) السيد محمد كاظم اليزدي، العروة الوثقى، المسألة١٠ من الاستطاعة.
(٢) المصدر السابق مسألة١٤.
(٣) السيد أبو القاسم الخوئي، مناسك الحج، مسألة٢٢ الطبعة الثامنة ١٣٩٧هـ.

ورد في الحديث عن رسول اللّه ﷺ: «إياكم والدَّين فإنه همٌّ بالليل ومذلَّة بالنهار»[١]، «صاحب الدَّين مغلول في قبره لا يفكه إلا قضاء دينه»[٢].

والمؤسف أن كثيراً من الناس يتساهلون في موضوع الديون وحقوق الآخرين، بينما ينفقون الكثير من المال في قضايا الترفيه والأمور الكمالية.

لقد اعتبر الفقهاء الدَّين مانعاً عن وجوب الحج، وأن الأولوية لوفاء الدَّين، يقول السيد السيستاني:

- إذا كان عنده ما يفي بنفقات الحج وكان عليه دَين مستوعب لما عنده من المال أو كالمستوعب ـ بأن لم يكن وافياً لنفقاته لو اقتطع مه مقدار الدَّين ـ لم يجب عليه الحج على الأظهر. ولا فرق في الدَّين بين أن يكون حالاً أو موجلاً، إلّا إذا كان مؤجّلاً بأجل بعيد جداً ـ كخمسين سنة مثلاً ، مما لا يعتني بمثله العقلاء، كما لا فرق فيه بين أن يكون سابقاً على حصول المال، أو بعد حصوله بلا تقصير منه.
- إذا كان عليه خمس أو زكاة وكان عنده مقدار من المال ولكن لا يفي بمصارف الحج لو أدّاهما وجب عليه أداؤهما، ولم يجب عليه الحج، ولا فرق في ذلك بين أن يكون الخمس والزكاة في عين المال أو يكونا في ذمته.
- إذا وجب عليه الحج وكان عليه خمس أو زكاة أو غيرهما من الحقوق الواجبة لزمه أداؤها ولم يجز له تأخيره لأجل السفر إلى الحج، ولو

(١) علاء الدين علي المتقي الهندي. كنز العمال، ج٦، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ، (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص٢٣٢.
(٢) المصدر نفسه.

كان ساتره في الطواف أو في صلاة الطواف أو ثمن هديه من المال الذي تعلّق به أو نحوه من الحقوق فحكمه حكم المغصوب[١].

الحقوق الشرعية

الحقوق الشرعية المالية التي تتوجب على الإنسان، كالزكاة والخمس والكفارات، هي حقوق للّه تعالى من ناحية لأنه فرضها، وهي حقوق للناس من جهة أخرى، لأنها ترتبط بحاجات الفئات الضعيفة والمستحقة في المجتمع، وإذا ما تساهل الإنسان في أداء الحقوق الشرعية، فإنه يكون معتديًا على حقوق اللّه، وحقوق الفقراء والمحتاجين.

لذا أفتى الفقهاء بأولوية أداء الحقوق الشرعية على أداء فريضة الحج، بل لو حج بنفس المال غير المخمّس أو غير المزكّى، لما صح حجه وما سقط الفرض عنه، بل هو مأثوم لتصرفه في حقوق الآخرين.

هكذا تعلمنا الأحكام الشرعية مراعاة سلّم الأولويات، وتقديم الأهم على المهم، فمع عظمة الحج ومكانته، حيث اعتبر اللّه تعالى تركه كفراً، ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ﴾ إلا أنه لا يلغي الأولويات الأخرى، ولا يكون على حسابها. اللهم وفقنا لحج بيتك الحرام، ويسّر للحجيج أداء مناسكهم، وتقبل منهم أعمالهم، وأرجعهم إلى ديارهم سالمين، وأشركنا في صالح دعواتهم يا ربّ العالمين.

---

(١) مناسك الحج وملحقاتها. ص ٢٤-٢٥-٢٦، المسائل ٣٤-٣٥-٣٦.

المحتويات



عنوان المؤلف

المملكة العربية السعوية

ص.ب: ١٣٢٢ القطيف ٣١٩١١

هاتف: ٨٥٥٥٢١٠ ٣ ٩٦٦+

فاكس: ٨٥١٢٦٠٠ ٣ ٩٦٦+

الموقع على الإنترنت: www.saffar.org

البريد الألكتروني: office@saffar.org